

نَحْوُ تَفْصِيحِ الْعَامِيَّةِ
فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ
دِرَاسَاتٌ مُقَارِنَةٌ بَيْنَ الْعَامِيَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

مقدمة

سبق أن نشرنا فى ورق المهرق ثمانين نسخة مكررة من كتابنا « الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية » وقد وزعناها على المختصين فى الوطن العربي لأخذ رأيهم كما نشرنا دراسات مقارنة حول اللهجات الدارجة فى كثير من الأقطار العربية وخاصة فى سوريا ولبنان ومصر والكويت وقطر والبحرين الخ . ثم أضفنا الى هذه الأبحاث حصيلة أخرى من الألفاظ الدارجة المغربية التي وجدنا لها أصلا عربيا فصيحا فى المعاجم القديمة كلسان العرب لابن منظور الذي جردناه بكامله لهذه الغاية فتجمعت لدينا ضميمة جديدة عززنا بها ما سبق أن نشرناه من قبل وهذه المجموعة هي التي نقدمها اليوم للقراء الكرام وهي محاولة أولى نرجو أن تكون قد أسهمت بها فى اقامة هيكل واضح لبيان مدى تقارب العاميات فى العالم العربي اعتبارا لأصولها الفصحى وما نتلمحه من امكانيات تفصيح هذه العاميات حتى تصبح لغة الحديث فى الوطن العربي موحدة أقرب الى الفصحى منها الى اللهجات الاقليمية الكثيرة التحريف .

صراع بين العامية والفصحى بالمغرب

ان اغلب الاصول والقواعد الاساسية مشتركة بين الفصحى والعامية المغربية حتى ما يتصل بالقلب والابدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك وتمتاز العامية (1) بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الاحايين اكثر ايفالا في القلب والتسهيل.

ونضرب لهذه الوحدة الاصلية امثلة وجيزة لا تنفرد بها العامية في المغرب الاقصى وحده بل تمس اللهجات الدارجة في معظم اجزاء العالم العربي (2) ، فمن مجالي التثخيف في اللسان الفصحى والتي اثرت في السنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض باضافة حرف واحد وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي اخفها نطقا وان كان اكثرها احرفا مما يؤكد ان عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الاصيل الا اذا لم تجد في صيغه ما يتفق وطبيعتها الميل الى التسهيل ومن امثلة ذلك :
(رز - ارز) - سبل (سنبيل) (سبولة في العامية) - سطل وسيتل (سطل) - تحوان وأتحوان (تحوان) - لوباء ولوبياء (لوبياء) - مونة ومؤونة (مونة) - وز -

(1) العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111) وقد لاحظ ان في كل مدينة السنة ذلقة غير ان اللحن كان فاشيا في العوام (ص 111) .

وقد تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع، فقال: « ان اللغة العامية أصبح معترفا بها يبحث في النماذج واساليبها وينتقى منها خيرا الا بعض علماء كآبي العلاء المعري ... (ظهر الاسلام ج 2 ص 100) .

(2) توجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من اهدانها استقراء الالفاظ والتراكيب الجارية على السنة اهل الاقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم واطالس لغوية وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياسا وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل لما له من أثر كبير في لهجات الاقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع جزء 7) .

اوز (وز) — دغر ودغمر اي خلط (دغمر) — طلمسوطمس الكتابة بمعنى محاها (1) —
نطحه وفرطحه اي (جعلته عريضا : نطح وفرطح) — قصم وقصم اي قطع (قصم)
هدم ودهدم (هدم) .

وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبد وجذب (جبد) وخرشش
وخرشب العمل اي لم يتقنه (خرشش) وخشخش وشخشخ (2) السلاح صوت —
دعس وعدس (داس) (3) — دعم وعمد (عمد) — ادغم وادمغ « ادغم » تسكع
وتكسع (تسكع) — فطس وطفس اي مات (طفس) لطح وطلخ (لطح) ينس وأيس
(ايس) وقد تستعمل العامة الكلمتين مثل : كف وككف — كب وككب — هز
وهزهز — ذر وذذر الخ .

أما النحت فأمثلته كثيرة : ويلبه وهي منحوتة من أصلها (ويل لأمه)

صبحه اي قال له صباح الخير .

مساء : قال له مساء الخير

تويل : قال يا ويلي

فسقه : قال له يا فاسق

ما شاء الله — (ما شاء الله) — ما طيبو (ما أطيبه) — محلاه (ما أحلاه) الخ .
ومن أمثلة الاتباع أو الإبدال بنفس المعنى :

العجر والبجر — حيمس ببص (4) هين لين (سهل) — هش بش (مسرور) —
الكوع والبوع (كعو ويعو) — الجوع والنوع — شيطان ليطان — حسن بسن الخ .
وهناك مآت الكلمات تحكي الاصوات أو الحركات وتتحد فيها اللهجتان نذكر منها
ما يلي :

زرزور — صفصاف — ريج — رعد — قيقاب — ناقوس — طبل — بوق —
نبح الكلب — قاققت الدجاجة — طن أو دن الذباب — وع الطفل الباكي — طننين
الناقوس — خريير الماء — تفل — لحس — نفخ — بح — قحب — أح — عطس —
بخ — صاح — زعق — ناح — ضرط — فسا — زمر — قطع — ثق — دق —
تختخ — تتم — جمجم — غمغم — بعبع — بقيق — قرقر — وسوس — همهم —
نحنج — خنخن — (تكلم من أنفه) — قهقهه — قرقر — صرصر — ولول — وحوح —

(1) استعملت العامة الكلمتين : طمس بمعنى محى وطمس بمعنى أخفى (الطلامس
اي الطلاسم)

(2) يستعملان في معنيين متقاربين (شخشخ وجهه اي جلب له العار) .

(3) تطلق العامة لفظتي دحس (بالحاء بدل العين) ودأس على مدلولين متقاربين

(4) أفرد أبو البركات الأنباري كتابا خاصا لحيمس ببص وقد توفي عام 577 هـ .

دقدق - وعوع - غرغر - طلطل - هرهر - زعزع - حثحث - ضعضع -
شعثشق - وتوق - زقزق - زرزز - طقطق - رشرش - رعرع - طنطن - تكتك.

أما الصيغ فكثيرا ما تتخذ نفس الوزن في العامية والفصحى للتدليل على نفس
المدركات كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف
مثل كنز (1) (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب) ونكسة
(نجسة أي كثير النجس) وشتامة (كثيرة الشتم) وعيابة ومصلحة (أي صلاح)
ومطهرة ومفسدة وحثالة وفتالة (أي بقية الثفل) وقبامة ونخالة ونشارة ونجارة
وأحق (أكثر حمقا) وأخوف وأطيب وأسلم وأخوأ وأعجب وأعرف وجهه جاهد
(أي شديد) وصيف صائف وهول هائل وعيشة راضية ومكان عامر (أي معمور)
وخبر كاذب (أي مكذوب) وبمين فاجرة (أي منجور فيها) وتفاقر (أظهر الفقر)
وتباكى وتحامق وتجاهل وتهاوت وتناعى وتشيطن وتفحل وتفرعن وتفرنج وتمدن
وتوحش ويخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر وأحق (أي موصوف بالحق)
وابلسه وأعمى.

ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل : حمارة (أصحاب
الحمير) وخيالة ورحالة وعسالة (أصحاب العسل) وتشترك الفصحى والعامية
في الاشتقاق المنطقي من الفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء أي
سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما أي ارتفع والسمن من السمن والشباك من
شبك والغمام من الغم أي التغطية والجارية أي التي تجري في خدمة سيدها
والجمعة أي يوم الاجتماع في الجوامع وحريم الرجل أي نساؤه (من تحريم المرأة على
غير زوجها) والصداع أي وجع الرأس من صدعه أي شقه والفلة الدخول من كراء
بيت أو فائدة أرض من غل المكان إذا دخله.

ويكاد ينعدم في العامية التغليب بالثنى (مثل القمرين والخافقين والعشائين
والاصفرين والاسودين) واستعمال صيغة فعال المبني على الكسر (للدلالة على
الأمعال والأسماء) أو المصدر نعتا أو معظم صيغ المبالغة (مفعيل ومفعلة ومفعيل) أو
مفعلة للكثرة أو المكان أو الفعل للتعظيم أو التصغير (اعنق (أي طويل العنق) واعين
وأورك (أي عظيم الورك) وأخفش (صغير العينين) أو افعل للدخول (اتهم وأشام
وأغلس وأنجد).

(1) كنز ومكنوز ذكره ابن سيده في المخصص في مادة كنز .
وتوجد صيغ عربية كثيرة انفردت بعض الأقاليم العربية باستعمالها مثل مصدر
فعل المضعف على وزن تفعال مثلا حمل تحملا بدل تحميلا في المغرب واليمن ،
قال الكسائي : « أهل اليمن يجعلون مصدر فعل تفعالا وغيرهم من العرب
يجعلونه تفعيلا » .

ومما امتازت به الفصحى أيضا افعال السلوب الدالة على الزوال مثل
أهتب أي أزال العتاب واشكى اذا أزال الشكوى وزينغ أي أزال الزيغ
والميلان (زينغ بالعامية اثار الزيغ) وثائم وتخرج وتحث اذا تجنب ذلك .

وكذلك زيادة الميم للمبالغة كزرقم أي شديد الزرقة .

ويجب أن يعيد التاريخ نفسه في تفصيح العاميات العربية وتوحيدها فمقد
تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه الاختلاف بها استوثق
اذ ذلك من صلات في الاسواق الاقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات وقد لعبت
قريش دورا هاما في انتقاء أجود اللغات ، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى
صار لغتها أفضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة
تحت راية الاسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها أحرف القرآن
السبعة وقد احتفظت السنة بهوية بميزات خاصة « من حيث التصريف والهيئة
والإبدال وأوجه الاعراب والبناء » (متن اللغة ج 1 ص 47) فقريش مثلا تفتح نون
المضارعة وأسد تكسرهما والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها أما الاختلاف في
الاسماء فلا يكاد يظهر الا في لغة حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدينة
الحميرية بدل السكين مثلا) .

ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في مظاهر مختلفة كالاظهار والادغام والاشمام
والتفخيم والترقيق والمد والقصر والامالة والفتح والتسهيل والإبدال وهو اختلاف في
الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ ، وقد عرف العرب منها قديما
النعنة عند تميم وقيس (ابدال الهمزة عينا) والكشكشة والكسكة عند ربيعة
(ابدال كاف الخطاب شينا) والغفغة عند قضاة (وهي اخفاء بعض الحروف)
والفحفة عند هذيل (ابدال الحاء عينا مثل حتى وعتى) واللخاانية في عمان واليمن
(وهي حذف همزة ما شاء الله (مشا الله) والتلثة في بهراء وهي كسر تاء المضارعة
(تلعب) والوتم عند اهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنسات في الناس)

(1) لاحظ الاستاذ فريد أبو حديد (مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 205) أن
حركة الكسر تكاد تكون شائعة في كثير من الدول العربية مثال ذلك كسر آخر
الاسم المضاف الى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون في الشرق أنت مالك (يقول
المغاربية مالك بفتح اللام) وهي لهجة لخم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة .

والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب وهاء الضمير) عليكم عنهم)
والاستثناء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار وهي قلب العيين
السائلة قبل الطاء نونا (أنطى — أعطى) وما زالت مظاهر ذلك الى الآن عند
الأمراب .

والمشترك نفسه يرجع لتعدد الالفاظ للدلول الواحد بين القبائل كما أن في
اللغة الموحدة نفسها اختلافا في الابنية من لغتين الى ثلاث عشرة لغة (عباءة —
عباية الخ) .

وقد أرجعت أصول الكلمات الواردة في القرآن الى خمسين لهجة من لهجات
القبائل علاوة على وجود كلمات معربة .

وظهر الانحراف في الحركات الاعرابية منذ صدر الاسلام فصار العوام في منهجهم
المنحرف واستفحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالاعاجم بعد الفتح فذهب علماء
اللغة لتقويم العامية وارجاعها الى اصلتها الفصحى وتجلي هذا الجهد في « أدب
الكاتب » لابن قتيبة « ودرة الفواص » للحريزي فحذف البون بين الفصحى والعامية اذا
روعت شجاعته في اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية في جميع مظاهرها لغة
عربية محرفة الشكل غير مضبوطة القواعد . ان العامية احتفظت احيانا بالفاظ عريقة
استعملها العرب واهملها المحدثون وقد راعت العامة مقتضيات التطور اكثر مما فعل
اللغويون الذين جرد الكثير منهم وراء قواعد راسخة لا تنفع للتيارات الحضارية
المتجددة وقد حاول عرب الجاهلية تطوير اللغة استجابة لهذا التاموس وساعدهم
على ذلك كون العربية كانت لغة منطوقة لا مقروءة وسارت العامة على نهجهم
فاحتفظت ببعض الخواص الحية وعملت على تنميتها بما يتفق ولوازم التجديد ضمانا
لاطراد الحياة وقد اضطر بعض الشعراء انفسهم كالفرزدق الى مسايرة هذا الاتجاه
عندما استعمل ال بمعنى اسم موصول اليعمل واليضرب بمعنى الذي يعمل والذي
يضرب وهي شائعة في العامية وخاصة منها المغربية .

وقد حاولنا في معجمنا هذا مقارنة بعض الالفاظ العامية في المغرب ومصر
والشام ويتجلى من موازنة كثير من هذه الالفاظ مع مرادفها في المعاجم انها دخلت
اولا الى اللغة الفصحى ومنها تسربت الى اللهجتين بسوريا ولبنان وكذلك بالمغرب
والا فيصعب تحليل وجودها في العامية المغربية التي لم تتأثر البتة باللهجة السريانية.

ولا ننس أن الشام وخاصة لبنان هو منبع اللغة البونيقية أو اليونانية التي أثرت في البربرية المغربية منذ ثلاثة آلاف من السنين والبونية عربية الأصل (1) وقد سبقت لغة القرآن والفتح الإسلامي بالمغرب وكيفت كثيرا من المعطيات اللغوية لاسيما وأن الفينيقيين الشاميين أسسوا في المغرب الأقصى عاصمة هي تشمش أو ليكس قرب العرائش منذ عام 1100 قبل الميلاد أي قبل تأسيس قرطاجنة بثلاثة قرون (814 قبل الميلاد) .

وهناك مآت الكلمات التركية اندرجت في عامية سوريا ولبنان طوال أربعة قرون من الحكم التركي فأبعدت كثيرا من المقومات اللغوية عن عراقتها العربية وقد دخل عدد قليل منها إلى المغرب منذ نفس التاريخ تقريبا أي في عهد السعديين الذين كان لهم ارتباط بالباب العالي لا سيما في الميدان الحضاري (الحياة والجيش والملاحة والادارة الخ) (2) .

وقد أشار الثعالبي في فقه اللغة (طبعة 1378 — 1959 — القاهرة ص 450) إلى أسماء مارسيتها منسية وعربيتها محكية أوصلها إلى مائة وواحد وأربعين منها البياع والدلال والبقال والجمال والطراز والخياط والنند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمرى والربعة والخرج والدواة والمرنع والفتيلة والمجرة والمزارق والطليل والشكال والتلية والهريسة والعصيدة .

ثم ذكر (ص 453) أسماء تفردت بها الفرس فعرّبها العرب أو تركوها ، منها : الابريق والكوز والطبق والتقصعة والسندس والياقوت والبلور والسמיד والكمك والسكنجبين والجلنجبين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل .

(1) أكد الأستاذ توفيق المدني في « تقويم المنصور » عام 1348 (ص 72) أن الكشوف الحفرية ونقوش الحجارة أثبتت كنعانية الفينيقيين كما أبرزت أن كلامهم كان عربيا شديد الشبه بالعربية العامية المستعملة خصوصا بنواحي العاصمة التونسية وبجزيرة مالطة قبل أن تختلط اختلاطا فاحشا بمختلف اللغات الأوربية وأهل مالطة هم بقايا العنصر الفينيقي الخالص .. « وقد نشر توفيق المدني (ص 72) نص الحفرية القرطاجنية التي وجدت في البرازيل ويتضح منها تقارب البونيقية ولهجة شمال افريقيا .
ووجود هذه الحفريات بالبرازيل يدل على أن القرطاجنيين هم أول من اكتشف أمريكا قبل الميلاد بـ 125 سنة .

(2) راجع كتابنا « مظاهر الحضارة المغربية » و « معطيات الحضارة المغربية » (فصل: تاريخ دخول اللغة العربية إلى المغرب) وكذلك كتابنا « تاريخ المغرب » وتاريخ افريقيا الشمالية القديم لكزيل Gsell و « العصور الغامضة للمغرب » للمؤرخ كوتني « Siècles obscurs du Maghreb »

وقد تأثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق الدخيل في المعجم العربي (1) لا بكيفية مباشرة لان المغرب ظل في منحنى عن التأثيرات الفارسية .
ومن أمثلة المشترك الفارسي في اللهجتين المغربية والشامية : بابا (أي الأب في لغة الأطفال) وبازار (سوق) وبازاري وباس (لثم) وشاويش (وشاوش) وخردة (وأصلها العربي الخرتي) وخواجه أو خواجي (غني) ودرويش (فقير) وزنزانة (سجن ضيق) وزيره (جعله في مكان ضيق) وسالف (خصلة شعر متدلّية على الصدغ) وشبر أي أشبار (وهو جبل رقيق جدا) وشنطة (حقيبة صغيرة) وثيت (نسيج قطنى فيه رسوم واللوان) وصباهي (صباحي أي جندي) وطارمة (بيت خشبي ذو قبة) وطاقية (نوع من ملابس الرأس) وقيطان (خيط مفتول من القطن أو الحرير) وكخ (كخ بالمغرب أي رديء في لغة الأطفال) ومارستان (مستشفى المجانين) وميخانة (حانة أي خمارة وتطلق على أحد الأحياء بالمغرب) ونيشان (وسام) ونيشن (نيش بالمغرب أي صوب التذيفة نحو الهدف) أما اليونانية فقد دخلت هي أيضا إلى سوريا ولبنان قبل الميلاد بثلاثة قرون حيث استمر الحكم اليوناني بها مائتين وخمسين سنة قبل خضوعهما إلى الرومان كما اندرجت عن طريق المترجمين السريانيين واليهود والعرب منذ أواخر الأمويين بما اتحموه من الفاظ دخيلة في القاموس العلمي العربي الذي اقتبس منه حكماء المغرب ونباتيوه أو عشابوه وكتب الطب والمقاتير المغربية حافلة بهذه الالفاظ التي يتردد صداها في لغة العوام مع شيء من التحريف إلا أن وجودها في عامية أهل الشام أبلغ نظرا للاتصال المباشر خلال حقبة طويلة من تاريخ البلاد .

ومن الكلمات العربية المقتبسة من اليونانية والتي دخلت إلى العامية المغربية على ما يقال :

ياتوت ، وملوخية ، ومصطكى ، ولوبياء ، ولجنة ، وكروياء ، وكرنب ، وكافور ، وقيطون ، وقيراط ، وقيثارة ، وقنطرة ، وقنب ، وقمم ، وقلم ، وقصدير ، وقرنفل ، وقرميد ، وقانون ، وقالب ، وقارب ، وقادوس ، وفندق ، وفنار ، وفلس ، وفص ، وفخ ، وطاجن ، ورطل ، ودلنن ، ودرهم ، وتؤلول ، وبلغم ، وبجباط ، وبطاقة ، وبارود ، واوقية ، واتليم ، والالماس ، والرز .
أما اللاتينية فقد استمدت منها اللهجتان الفصحى والعامية الفاظا يقال بأن منها اسطبل ، وبوق ، ودينار ، وسجل ، وصراط ، وصاتور ، وطرطور ، وقرصان ، وفرن ، وقفة ، وتلنسوة ، وقميص ، وقنديل ، وقنطار ، وكوفية ، ومد (مكيال) ،

(1) وكذلك بالفاظ من اللغة التركية مثل باشا وبكرج (اناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنّجق وطابور وطز (للاستهزاء والاستياء) وطوبجي (مدفعي) وصابونجي وجيدولي (صدرية) وجامكية (مرتب عسكري في عهد الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشادور وبرنامج الخ .

ومنديل ، وميل الخ (1) .

وبينما كان التأثير الاسباني في اللهجة السورية واللبنانية نادرا جدا اذا به يتخذ طابعا هيمتا بالنسبة للعامية المغربية نظرا للتبادل الموصول بين الاندلس والمغرب خلال الحكم الاسلامي اي طوال ثمانية قرون ثم ثلاثمائة عام بعد ذلك احتل البرتغاليون والاسبان في غضونهما مراكز هامة في شواطئ البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسيقي من المغرب (2) .

وقد عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالداسكر والاقتصار في الأكل على الكسكس والصيد وشرب اللبن والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاتواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية

(1) من الالفاظ الفارسية الدخيلة الدبكة اي الطبل (واصلها تابورك) والدمغة بمعنى الختم والطابع .

ويختلف هذا التأثير في الاقطار العربية الاخرى ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية خلافا لما عليه الحال في مصر فان معظم الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية ثم من اللغات الانجليزية (محمد رضى الشيبى مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية ج 8 ص 131) .
وديوان العراق لم ينقل من الفارسية الى العربية الا في عهد الحجاج الذي امر بذلك كاتبه صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون - المجلد الاول القسم الثاني ص 437) .

(2) ذكر برونو Brunot (هسبريس 1949 - العددان الثالث والرابع) ان اللغة الرومانية اللاتينية امدت العامية عن طريق الفصحى بالفاظ مثل مد وتصر او مباشرة بكلمات مثل الطابية وكركور وذكر ان لفظ قنديل (Candi) مقتبس من اللفظ العربي Qindid وان الكفنة مأخوذة من التركية .

ولاحظ في مقدمة مذكراته حول المفردات البحرية بالرباط وسلا ان وفرة الالفاظ الاسبانية الدخيلة في هذه المفردات تدعو الى نسبة بعض الكلمات الى اصل يوناني لاتيني وهذا الغلط هو الذي وقع فيه سيموني Simonet في كتابه Glosario حيث ذكر مثلا ان الشابل Alose مستمد من اللفظ اللاتيني Sapidus وقد اعطى برونو صورة عن مروح التأثيرات الاجنبية في العامية البحرية بالرباط وسلا فذكر انه بالاضافة الى 456 لفظ عربي يوجد 217 كلمة اسبانية و 30 لاتينية يونانية و 6 فرنسية وايطالية و 6 انجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية واحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرها وذلك من مجموع يبلغ 753 لفظة ويلاحظ هنا قوة تأثير العربية الفصحى بالنسبة الى موائى اخرى في المغرب مثل مستغانم بالجزائر ففي الرباط مثلا تسمى Chaloupe بالعشارية وفي مستغانم ببوطة من Bota الاسبانية

على ان البرتغالية قد تأثرت باللهجة المغربية حيث كان البرتغاليون يرسلون بالعجمية التي كانت عبارة عن برتغالية مملوءة بالالفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بالحروف العربية (تاريخ المغرب كواساك Coissac de Chavrebière ص 273)

رائعة كما يتحلى كالنساء بالأسورة والعقود وتمتاز المرأة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية ، وبرز الاطار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طمعت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الأولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدث البربر الى التفكير في وضع احرف « تنفاغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخير لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونف من العبرية لم تترك اثرا يذكر في اللهجات المحلية .

ولعل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءت عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقامت المساجد والدواوين والمصالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق آنذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي والرومي واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطارها الجديد امكنا القول بأن الشام كانت ينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر في عهد الادارسة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشأتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والترتيبات الادارية والسياسية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا أن الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبيد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمانيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارسة بفاس أسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيسارياتها ومسجديها مظهرا خافتا لعاصمة دمشق

وسواء اكان هذا الاقتباس مباشرا او بواسطة فان الفاظا فارسية دخلت منذ هذا العصر الى المغرب ودخلت معها تسمياتها كما انتقلت الى المغرب في نفس الفترة من الشام مصطلحات رومية (2) قليلة كالبيستان ، والقسطاس ، والبطاقة ، والاسطرلاب ، والقنطار ، والقرمود ، والترياق ، والقنطرة والقيطون (3) والذي يجعلنا نرجح وجود هذه الالفاظ في المصطلح الدارج بالمغرب منذ هذا العصر هو أن

- (1) ماضي افريقيا الشمالية — كوتبي ص 148 .
- (2) فقه اللغة طبعة 1378 — 1959 — القاهرة ص 450 — 455 .
- (3) دار القيطون بفاس أسسها المولى ادريس .

معظمها يمثل المظهر الجديد للحضارة الإسلامية التي بقي الشعر والشعراء في منأى عن وصفها لأنهم حتى في دمشق ظلوا في أبراجهم العاجية ليكون في أسلوبهم الجاهلي على الاطلاق ويتغنون بالماء الآسن في عنفوان المدنية الناشئة .

واول مسجد على النسق المعماري الاسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري في نكور (1) في نهاية القرن الأول استمد في تصميمه من جامع الاسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي أحمد البدوي دفن طنطا وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية (Arabesques) والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والامعان في دراسة الرياضيات ونزعة الابداع حدث مسلمي الاندلس والقيروان ومصر ثم المغرب الى التسطيرات الهندسية الساذجة التي يظهر انها وسمت الزخرفة في اوائل العصر الادريسي وكان استمرار الصراع في الاندلس بين العناصر السلالية المختلفة من عرب وبربر وقوط عائقا دون تفتح الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات (2) على تأسيس فاس حتى انحدرت الى المغرب ثلاثمائة أسرة قيروانية تلتها بعد أربع سنوات ثمانمائة عائلة جاءت من ارباض قرطبة معظمها من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الاندلس ووصل بعضهم فازاز بالأطلس انتجاعا للحقول والمراعي الخصبة واثجار التوت لتربية دود القز وصناعة الحرير (3)

- (1) مما يبرز تأثير الاندلس احداث الموالي الصقلية لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة نكور (المسالك والممالك للبكري طبعة الجزائر 1911 ص 97) .
- (2) تبلغ الاسر الاندلسية التي هاجرت الى فاس عام 202 هـ 818 م أربعة آلاف حسب عبد المالك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص 25) ودوزي : تاريخ مسلمي الاندلس (1932 ج 1 ص 301) او ثمانمائة (هنري طيراس - تاريخ المغرب ج 1 ص 118) بينما بلغ عدد الاسر الافريقية التي جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة ويظهر أن عدد الريضيين تراوح بين أربعمائة وثمانمائة اعتبارا للغلط المحتمل الناتج عن اضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين العدوتين وقد تحدث المقرري في النفخ (ج 1 ص 318) عن الواقعة التي أدت الى طرد الاندلسيين فذكر أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهك في لذاته فخلعه العلماء بقرطبة فأجلاهم عن الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ومنها الى جزيرة اقريطش .
- (3) ذكر ليفي بروفنصال أن الاندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبنا والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية Fez avant le Protectorat) وقد لاحظ لوطورنو (ص 205) أنه إذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فإن الاندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم . وقد أعطانا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه « بساط العتيق » صورة عن حضارة القيروان حيث تحدث عن سباطها (يوجد شبهه بفاس وهو سباط العدول إلا أنه أصفر منه) وحماماتها العمومية (49 حماما) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم أصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للإسلام في تونس أو قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية أن الطبقة المتمدنة العتيقة من الاندلسيين قد نزلت مدينة =

بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من الفعلة الذين اتاموا في عدوة القرويين الخلايا الأولى للحرف والصنائع اليدوية مدرجين بذلك في المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك في التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط وإذا اعتبرنا أن الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيرا عما كان عليه من حيث الهيكل العام فافتنا نلاحظ أن عدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة والاجتماع ففيها القيساريات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق ويبلغ عدد أحيائها اثني عشر مقابل نصفها في عدوة الأندلس و 17 حماما و 96 كتابا قرآنيا بدل 24 وست مدارس بدل اثنتين هذا وإن جامع القرويين الذي أسس عام 245 هـ مع شبيهه جامع الأندلس على يد أم البنين واختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين عدا تصميمه الغريب الذي تتوازي بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الإدريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق وقد أضاف إليه الناصر الأموي عام 345 أي بعد مرور قرن كامل على بنائه اثني عشر بلاطا جديدا وحول المنارة إلى مكانها الحالي مفضيا بابها « بصنائح النحاس الأصفر » مع « قبة صغيرة » محلاة « بتفانيج موهبة بالذهب (1) وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (2) بالأندلس كان عهد تحول وانتقال في تاريخ الحضارة المغربية التي بدأت تتخذ بالعاصمة الإدريسية سمات جديدة في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة عن أصولها بقرطبة إذا اعتبرنا المضافات الأموية بجامع القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر إدريسية كالبصرة وأصيلا أصبحت تنافس مدينة فاس .

ومن الصعب أن نتعرف على العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت إلى فاس في القرن الثالث الهجري وإن كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب أمثال الحميدي صاحب « جذوة المقتبس » وابن غالب صاحب « فرحة الأنفس » والحميري في « الروض المعطار » والمقري في النفع الكثير من ذلك بالنسبة للأندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في

= تونس واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع عن الموحدين. وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفع الطيب ج 2 ص 764) أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع إفريقية فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأراحي الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء جديدة .

ومعلوم أن الأندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم — حسب سرفانطيس مؤلف « دون كيشوط » تجارة الأغذية ويضعون يدهم على الحاصل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية رواج أموالهم .

- (1) زهرة الأس ص 37 .
- (2) ابن حوقل — طبعة ج 2 ص 77

الإدارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران وأول ما بيده الباحث حتى بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط كالجامع والصدقات والاعشار والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الأسواق والمكوس والمشرف (1) أو الامين ودار السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا أن نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لاطارها الزمني فأننا نلاحظ أن أغلبها متقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (أي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (أي المسجل في الديوان) وفحص السراشق (أي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعث العسكرية وعقد الألوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب) على أن معظم أسماء الحرف موحدة وكذلك أسماء الازهار والاعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها (2) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور بن أبي عامر إلى أن أصبحت الاندلس جزءا من العدو الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لإقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (3) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لهد تظنرة تنسيفت (4) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (5) وكان لوحدة افريقية والمغرب الأقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية إلى المدد الاندلسي غير أن من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لأن جامع القيروان نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والأجر والجبس عند تجديده على يد محمد بن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون إقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتشوير الحواضر أيام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا أردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن وأساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب

- (1) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 872)
- (2) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 2 في كتابنا « تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث » (طبعة القاهرة ص 213)
- (3) زهرة الآس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27
- (4) الادريسي - مقتطفات من النزهة - طبع الجزائر 1957 ص 69 .
- (5) الاستبصار - ترجمة ص 179

والعاج « (1) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كانموذج للفن في أروع مجاليه وهكذا فالفعلة الأندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن أكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة الملثمين وتتشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسقى زرياب الذي أحدث في الأندلس ثورة جذرية في المواد فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي — وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (2) لم تفتح للثقافة عدا القليلات أمثال زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فانو وأم هانيء بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (3) بل استاذة عصرها (4) وأم عمرو بنت ابي مروان بن زهر طبيبة النساء في البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الادبية الشاعرة (5) وزينب القرقلية استاذة القراءات السبع بهراش وأغمات وزينب بنت يوسف بن عبد المومن التي ربيت بالأندلس فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشفوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء غرناطة يشهدن الحفلات العامة سافرات ويسفن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية كما كان بالبريـض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب (6) ، فاذا استثنينا مثلا الخط الحجازي فان ترتيب الحروف تختلف بين الشرق والمغرب ابتداء من الزاي فهي عندنا .

ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ي
بينما هي في المشرق

س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م . ن ه و لا ي

والمغاربة يعجبون الفاء والقاف بنقط الأول بنقطة من اسفل والثاني بنقطة واحدة من اعلى كما أن صور الأرقام في المغرب عربية اصيلة ليست منقولة عن الرسم اللاتيني وقد ابرز ذلك الاختصاصيون في المؤتمر الذي انعقد بتونس عام 1963 حيث اكدت الجامعة العربية عزمها على اصدار تعليماتها الى الدول الاعضاء لاعتبار الأرقام المغربية هي الأصل والاقتصار عليها في العد والترقيم .

- (1) زهرة الآس ص 42
- (2) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .
- (3) « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » ص 165 .
- (4) الاحاطة لابن الخطيب .
- (5) جذوة الاقتباس ص 335 .
- (6) راجع الملحق رقم 4 من كتابنا المذكور « تطور الفكر واللغة ... » ص 222

غير أن الموحدين تفزوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم عما أبدوه في البداية من روح التزمت (1) فاضافوا روائع جديدة الى المآثر الأموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتيبة بهراكش والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة) ونضرب مثلاً لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عهد عبد المومن (2) والذي تارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي « أجمل ما أبدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي » ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفنيين المصريين والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (3) وبذلك تعززت الوصلة بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصاراة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتباراً لهذه المعطيات أن نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال أسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الأساسية لنصف سكان الحواضر (4) فمصطلحات الحرف بهراكش كانت تحتوي نظراً لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية أو حضرية معدودة مثل بعدى (أي اسكافي بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات أي السواتي الصحراوية) وتكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاج) في حين تزخر بالآلفاظ العربية التي حرف بعضها تسهلاً للنطق بها مثل بامهاود (أي أبو المهاودة وهو حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكنى (مصلح المنجانيات)

- (1) وقد أمر المنصور الموحدي « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجترأ بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباغ المذهب فبيعت .. » (البيان المغرب لابن عذاري ج 4 ص 81)
- ففي زمن المنصور والناصر الموحدين كان عدد الاطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصبغة 161 وتسكك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وأفران الخبز 1170 وأحجار صنع الكاغد (أي الورق وهي كلمة تركية) أربعمئة ودور الفخارة 180 (زهرة الأس للجزائري ص 33) وقد بلغت الأرحي بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت التوفى عام 626 هـ في معجمه ج 6 ص 331) .
- (2) المسند الصحيح الحسن ص 65 — 1925 .
- (3) ويليام مارسلي في كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي .
- (4) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 — 1924 في كتابنا « معطيات الحضارة المغربية » ج 2 ص 78 . (الحناطي الاسلامية — باريس 1925 ص 38) وقد كان نظام الحناطي (أي النقابات العمالية) يتسم في جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات .

وغواسلي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما ينيف على البائنة في قلبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبغ) والجرار والحراث والعمار والحمامي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحي المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة أو الطاحونة التي تدار بحركة بفل أو حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط أي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران) واللباد (صانع اللبد)، أما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من أصل أندلسي) ودار العميان والمرططان وسوق الفرش (أي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبلاحة (صانعو الاتفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجماعية (لصنع جعاب المسدسات) والسرايرية (لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الاغمدة) والصقالة والذهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزراذخية (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعو نول النسيج) واذا اخذنا مثالا لباقي المدن المغربية في شخص اصغر مدينة وهي مينا أزموور لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنوع في النسيج وحرف جديدة كحرفة البغازة وهم بائعوا السمك بالجملة والشرابة وهم مجففوا الحوت، وهنالك الفاظ مغربية أندلسية مبتكرة مثل القبالة والقباض بدل الجبركي والجابي وقد استدلل السيد محمد علي بهاتين الكلمتين للتدليل على اصالة الابداع اللغوي في المغرب والأندلس (عجائب اللهجات - مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لأول وهلة من مقارنة نوع المصطلح في عاصمتي الشمال والجنوب مدى تأثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث بدأت تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص أدق في بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع في ذلك اذا اعتبرنا أن مدينة فاس أصبحت في عصر الموحدين (1) «حاضرة المغرب» الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة «ولا يوجد في الدنيا أكثر مرافق وأوسع معاش واخصب جهات منها» كما يقول المراكشي - بشيء غير قليل من الغلو على أن الفن بفاس أصبح مزيجا للكثير من العناصر العربية فاذا ضربنا بالزليج الذي عرف في الشرق بالفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي اصله بيزنطي كان يصنع منه بالاندلس نوع من المنفض

(1) المعجب في تلخيص اخبار المغرب بسلا عام 1357 - 1938 (ص 213 - 221) لعبد الواحد المراكشي.

المعروف في الشرق بالفسيفساء (1) والترصيع هو التكنيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التلييس والترسيب والتزليل أصحابها عند العرب في العهد العباسي التطبيق وعن الترصيع سوري في أصله يعرف بأوروبا الى الآن بالفن الدمشقي damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الأوروبية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها (2) .

وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والأجهزة والأدوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وتكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية في العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاشفى (مخز الاسكاني) والبريسة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والنبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة (القرط) والتلج والخبل (لفظة يمنية) والحنوط والخزقة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحيدي بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثلها مثال ذلك البيمارستان (3) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخايف المحكمة » وغرست فيه « الاشجار المشومات والمأكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض » وماله من « الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحريز والاديم » وتزويده بالادوية والصيدلة « لعمل الاشربة والادهان والاكحال مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحيدي الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذي بذ في نظره مستشفيات باريس في عتفوان القرن العشرين (4) .

وقد رأينا كيف بلغ المصطلح العلمي اوجه في هذه الفترة التي آوى خلالها العرش المغربي في ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية في شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث بأوروبا حيث ظلوا اساتذتها المرموقين طوال قرون .

اما المريينيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب واغناها واحقها بقبني التراث الموحيدي في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع

(1) النفع نقلا عن ابن سعيد ج 1 ص 187 .

(2) (اعراف المسلمين وعاداتهم ص 247)

(3) المعجب ص 177 .

(4) الموحدون les Almohades للسيد Millet طبعة 1927 .

في مجموع الشمال الافريقي (1) حيث تبلورت مدنيتهما الحضرية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني (1331 - 1351) الذي يعتبره الغربيون اقوى عاقل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارثة الاندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال المهجر الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لأول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كناس وتلمسان والجزائر (2) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان نقدر من خلال وصف (3) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارياب الصناعات كالبنايين والنجارين والجبايين والزليجين والرخامين والقنوين والدهاتين والحدادين والصفارين والجدارات المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم النجارة والصناعات المشتركة (كالتوريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطيائير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها الموه بالذهب والحديد المقصود ، غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البادية (اي الارياف والسواد) ظلت نسبيا في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثا لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطفمه تدريجيا استجابة لمقتضيات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارياف عواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بتراتها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت

(1) مارسى Marçais في كتابه « L'Art dans l'Islam » ص 134) وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتأثير الفرناطي الموسيقي الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي (صبح الاعشى ج 15 ص 299)

وقد أسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحا ومنهم محمد الفسائي الذي كان تاجرا بقيسارية آسنى يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطا والسير والنحو والاداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (توفي عام 663 هـ) (الذيل والتكلمة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله معن الذي كان يتعمش (كلمة مغربية معناها يتعمش بعمل دود القز بفاس) نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني (ج 1 ص 197) .

(2) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .

(3) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كاغد لتقدير الساحة (اي المساحة) .

الى المغرب أنواج المهاجرين الاندلسيين بلغت في مدن كتطوان أريعين الفا فيهم الاديب والعالم والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الأزياء مثلا أن سكان حواضر أندلسية مثل فاس وتطوان والرباط أصبحوا يضعون على رؤوسهم قلائس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (أي نواصة) بعد النفسي العام أوائل القرس السادس عشر الميلادي لأن الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عضور التحقيق الصليبي (Inquisitions) حيث أجبر الاسبانيان العرب المسيحيين على التميز بشارة زرقاء (1) .

ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو أيضا عادة أندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (أي العنصرة كما تسمى في العدوتين) أي 24 يونيو وذلك الى أول أكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية (النفع ج 2 ص 752) .

أما في الحقل العمراني فان « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ — 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولفته فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (2) كتبت في ابهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الاندلس : فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع :

فأنها والتبر سال خلالها	وشي وفضة تربها كافور
وكان أرض قراره ديباجة	قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين أمامه	حركات سحب صافحته دبور
صفت بصفتها تماثل قضة	ملك النفوس بحسنها تصوير

- (1) في عام 1019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النفع ص 101) .
- (2) أي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل أي بالنقش وكانت الجدران تحلى أحيانا بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل وفي سلا نماذج من أصل فارسي أو شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوربية وكذلك في أزموه التي يرجع تاريخ نهانجها الاسبانية الإيطالية الى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .

ويوجد بفاس تطريز علجي الأصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس أما التطريز التطواني فهو من أصل بلقاني .

وقد كتب بجدران المصرية (1) المطلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا وارض النديم اهلة وشموسا

وكان هذا الاطار العمراني الرائق مسرحا لحفلات شعبية بمناسبة حفلات كذكرى المولد النبوي يجري خلالها اعدار ابناء الفقراء ويتبارى الشمامسة في تطريز شموع « يحملها صحافون — كما يقول الفشتالي في مناهل الصفا — محترفون بحمل خدور العرائش عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالعذارى تتبعها الاطبال والابواق واصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على اريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وامامه شموع من ببيض كالدمى وجر جلبيت في ملابس ارجوان وخضر سندسية في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولدات واشعار الصوفية وتتل قصاد شعراء الدولة بغزلها ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده في ترانيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الامام المفتى ثم الوزير ثم الكتاب المخزنون ويختم الحفل بنشر « خوان الاطعمة والموائد ، وتوزيع الاعطيات » وكان هذه القصور الباذخة في مرشها الحيرية ونمارتها المصطفة واستارها وكلها وحبالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ووصفانها واعلاجها بأقبيتهم المخوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة — صور حية لفخخة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الانبياء حيث استعيف عن القصاع المالمقية والبلنسية المذهبة وعن الاواني التركية والهندية والطسوت والاباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية بأوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف انحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي أغصان الريحان الغض وماء الزهر والورد. كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الاندلسية الرائعة التي تسحر الابواب بنغماتها المشجية وتلاحينها الاخاذة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تردد في حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبضات القلوب وتوعية الروح وتاجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوي في الدارجة والفصحى على السواء فكم من تعابير تخللت الالحن كانت ارسخ في البواطن وأملك للوعي وكم من اغنيات ساحرة ردها الرضيع في حبه وربة الخذر في حجلتها كان اثرها اوقع في النفس ولفظها أعلق باللسان من كل تصيد يلحن في الكتاب أو درس لغوي يلتقى في حلقات العلم .

(1) المصرية اي الغرفة الواقعة في طبقة عليا (العلية بالفصحى) ولعل لوجود طبقات في الابنية منذ القديم بمصر اثرا في هذه التسمية .

وإذا كان عهد السعديين قد نضدت معالنه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فان عهد العلويين الذي أقيمت فيه نفس القصور والبساتين مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بنفس البذخ قد اتجه الى دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن أروع ما يبدهك في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بأبراجها ومدافعها ازاء البرك الفياضة للتمرين والانبساط معا في فلكها وزوارقها وكانت أهراء القصر تضم اثني عشر الفا من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازيا وقد بدأنا بالرغم عن أصالة اللغة العربية بالمغرب نسمع في معماريات العلويين وعبرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالتقنايط (أي الهياكل) المقبوة في الأهراء والاصطبلات المستقفة بالبرشلة (وهي نوع من الروافد والعوارض pignon وسواني الماء الدائرة (أي النواعير المائية) والقرايمد علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الأشجار (أي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود الكور والبنب (أي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس والكراريس (أي المدافع المجرورة والضويلي) لتحريير الثغور المحتلة وبعث الباشدورات الى طواغية (جمع طاغية) الاصبنيول او البرتغال او النجليز « لاحكام الصلح » ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكناجي باليكناجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (أي المدفعية) والبحرية المغربية بغلائطها (سفنها الحربية) ومراكطها (أي حراقاتها) ومراكبها القرصانية ودخلت الى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة (1) والباصبورط (الجواز) والطنبور والكرنتينة (الحجر الصحي) والمحلة (أي المعسكر) وصاكة الأعشار (أي رسومها) وصقالة (أي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البونب (أي انفجار القنابل) والبستيون (2) وأنواع النقود كالبندقي في أربعين أوقية من الذهب والضبلون (doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال real فيه عشرون أوقية) والبسيطة (خمس أواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي أي نصف القرش)

- (1) راجع النفحة المسكية في السفارة التركية لعلي بن محمد التاجروتي .
- (2) ظهرت هذه الكلمة منذ السعديين وقد استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدأ يستعملها آنذاك سلفه من المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الأتراك فلاحظ أن أهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الأجنبية والمصطلحات العجيبة حيث « عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق المعجم وإذا كان أصل العمل مأخوذاً عن المعجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه » . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

والسنجق (1) وبقسماط (بسكويت) وكل تلك مظاهر للعجبة التي بدأ المجتمع المغربي يتسم بها حيث « اتخذ ذوو اليسار – كما يقول الناصري المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفيسة وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية » التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غربية صالحة مثل فابريكة (اي مصنع) السكر وفابريكة تزديج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (القطار الحديدي) والتلفراف الى غير ذلك وهكذا بدأت تتجلى في الافق المغربي على عتبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قلبها الافرنجي دون تعديل وقد تحدثنا في كتابنا « تطور الفكر واللغة .. » (ص 161) عن ظهور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال فأوضحنا كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية واشترابت الاعناق الى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت الى جوهر الاسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث

(1) الاستقصا ج 4 ص 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في معرض باريس عام 1285 هـ (أي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من انتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيفه .

